الفصـــام بعـــد مائـــة عـــــام؟!

www.arabpsynet.com/documents/DocSamarrai100yearsSchizo.pdf

د. صـــــادق السامرائـــــي *
أمريكـــــا - العـــــراق
alrahwan@yahoo.com

مضى على إستخدام كلمة شيزوفرينيا مئة عام وسنة واحدة , بعد أن إبتدع الإسم الطبيب السويسري يوجين بلول , ومنذ ذلك الوقت ذاع الإسم وتعددت توصيفاته ومعانيه. وفي هذه المناسبة وددت الخوض الموجز في مسيرة المرض عبر العصو , وكيف تم لنا التفاعل معه بأساليبنا المعاصرة التي قد يراها البعض ذات قدرات شفائية وعلاجية مؤثرة وفعّالة.

مضى على إستخدام كلمة شيزوفرينيا مئة عام وسنة واحدة

فقد انتقلنا في المائة سنة الماضية إلى التعامل مع الأمراض النفسية والعقلية كالشيزوفرينيا على أنها مرض عضوي دماغي كأي مرض آخر, وبهذا تم تحرير الطب النفسي من أصفاد الفلسفة والرؤى والتصورات , وأخذه إلى ميادين العلوم الطبية الخاضعة للبحث والقياس والملاحظة والمتابعة السريرية النافعة. وبسبب هذا التحول تم ابتكار العديد من العلاجات الدوائية والسلوكية اللازمة للتعامل مع المرضى , وتأهيلهم للإنخراط في الحياة العامة وفقا لضوابط وشروط وتقديرات وإسنادات إجتماعية ودوائية وسلوكية.

وتأريخيا , وردت أعراض الشيزوفرينيا في آثار الأولين , فمنذ الأزل والبشرية في مواجهة مع هذا الداء الذي أعْزته إلى الأرواح الشريرة والشياطين أو أنه عقوبة إلهية على عمل لا أخلاقي أو مشين.

قد انتقلنا في المائة سنة الماضية إلى التعامل مع الأمراض النفسية والعقلية كالشيزوفرينيا على أنها مرض عضوي دماغي

والشيزوفرينيا تشترك بوجودها ونسبتها مجتمعات الدنيا قاطبة , وهناك العديد من الوثائق الأثرية والتاريخية التي تشير إلى ذلك وفي جميع الحقب والأماكن والأزمان. حتى في العصر الحجري , كانوا يثقبون الجمجمة لكي تتمكن الأرواح الشريرة من الخروج , فقد تم العثور على جماجم مثقوبة وتبين بأنها من صنع البشر بالبشر , ويبدو أنهم كانوا

كأي مرض آخر

الشيزوفرينيا تشترك بوجودها ونسبتها مجتمعات الدنيا قاطبة

أن الريادة في الطب النفسي الحديث قد بدأت في القرن الثامن عشر ، حيث تم التركيز على التوصيف الدقيق للأمراض النفسية ، ويُعد الطبيب الفرنسي (فيلب باينل) من المؤسسين للطب النفسي الحديث

يحسبون أن الأرواح الشريرة محبوسة في الجمجمة ولابد من إيجاد مخرج لها.

وما كانوا يقومون به ربما يتسبب بمضاعفات إلتهابية وعصبية تحد من حركة المريض وتقيده وتخرسه أو تقضي عليه. ولهذا تركوا لنا مثاقيب الجمجمة , أي أنهم أوجدوا آلة لثقب الجمجمة لطرد الأرواح الشريرة من الرأس.

وهيمنت التفسيرات الخرافية والغيبية على فهم الأمراض العقلية على مر العصور وحتى الآن.

وكما هو معروف هناك إشارات لمرض الفصام في آثار حضارات وادي الرافدين والنيل وفي الحضارات الأخرى كذلك.

وتبين للباحثين أن كلمتي "قلب" و "عقل" لهما ذات المعنى أو أنهما كلمتان مترادفتان, وذكرهما القرآن الكريم بهذا المعنى أيضا.

وتحدث إفلاطون في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد عن جنون إلهي وعضوي , فالأول يصنع الأنبياء ويملأ فراغ عقول الأجيال بالمعاني والأفكار, ويلهم الشعراء , ويحقق رغبة قوية للجمال , وبأختصار هو التوق للمثال والتسامي الأعظم , وفكرة هذا الجنون عريقة في الميثولوجيا اليونانية قبل إفلاطون.

وكان يرى أن لابد من معالجة الروح أو النفس لكي تتحقق سلامة الرأس والبدن.

وأمعن إفلاطون في وصف النفس واللاوعي وأدرك أن كل إنسان فيه ميل للتفكير المضطرب وفيه من أوصاف النفس السيئة الكثير , وكأنه قد وصف هرم ماسلو في الحاجات البشرية وإرضائها. وحسب أن الصرع والجنون وتشوش الوعي أو الهذيان تسببها الآلهة.

والديانات بأسرها تطرقت إلى الجنون , وفي القرآن الكريم ذُكرت كلمة مجنون والجن التي هي أرواح هائمة ربما تكون من مسببات الجنون. ولا يُعقل أن الأفذاذ المسلمون من العلماء والمفكرين والفلاسفة لم يبحثوا في توصيفات الجنون , ولم يضعوا المعايير التي على ضوئها يمكنهم إعتبار الشخص مجنونا, إذ تترتب على ذلك حقوق وإلتزامات شرعية وتشريعية.

ومعروفة تفسيرات إرسطو وربطه للمزاج بالسوائل البدنية كالصفراء والبلغم وتطرقه للميلانخوليا. ومن ثم جاء أبقرلط المكنى بأبو الطب وأعزى كل المشاعر والإنفعالات للدماغ , وأمعن في محاولاته التجريبية والعلمية والسببية للفصل ما بين الإعتقاد والمعرفة العلمية

وبعده جاء آخرون وحاولوا المعالجة بالموسيقى والفلسفة , وأكدوا على أهمية فهم الظروف المجتمعية التي ترعرع فيها المريض لكي يتحقق الفهم الأصلح للمريض , واستخدموا الحمامات والتدليك والطعام في العلاج , وبعضهم بالتجويع والصعق والجَلد وفقا لنظرية كون المرض العقلي غضب إلهي.

وفي القرن الثاني للميلاد قام الطبيب (أريتايوس) بتصنيف الأمراض العقلية وذكر الهذيان (فرينايتس) والإختناق الهستيري , والميلانكوليا (الفصام والكآبة) والهوس. وهذا الطبيب هو أول مَن رأى بأن أصل الأمراض العقلية لا يمكن تحديد مصدره بالضبط , واعتقد بأن الشخصية تلعب دورها في الوصول إلى العلة المرضية.

وجاء (كالن) في القرن الثاني الميلادي ورأى بأن الأمراض العقلية تنجم عن إضطرابات دماغية , أو في أعضاء أخرى من الجسم. وقد أثر على الطب العربي والأوربي , ومضت نظرية السوائل أو الأمزجة الأربعة مهيمنة على التفكير البشري حتى القرن التاسع عشر.

وكتب (إبن ربّان الطبري) في القرن التاسع الميلادي كتابا طبيا خصص فيه فصلا للأمراض العقلية. وإهتمت الديانة المسيحية كثيرا بالتأكيد على أن الأمراض العقلية ذات منشأ شيطاني أو تتسبب بها الأرواح الشريرة , وكانت الهلاوس تعد موهبة ربانية أو قوة إلهية.

وفي القرن الخامس عشر في أوربا كان الذين يصابون بالأوهام والهلاوس يحسبون على أنهم ممسوسون بالأرواح الشريرة , وقد أُعتبرت العديد من النساء الممسوسات ساحرات وتم إحراقهن.

وما ضعفت فكرة الأرواح الشريرة إلا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي , فظهرت المستشفيات العقلية في القرن السابع عشر في أوربا , وبنيت المصحات العقلية , وسيطرت فكرة الصعق على العلاج , وكانوا يسكبون الماء البارد على وجه المريض حتى يختنق أو يربطونه بالكرسي لوقت طويل.

ويمكن القول أن الريادة في الطب النفسي الحديث قد بدأت في القرن الثامن عشر , حيث تم التركيز على التوصيف الدقيق للأمراض النفسية , ويُعد الطبيب الفرنسي (فيلب باينل) من المؤسسين للطب النفسي الحديث , والذي أسهم في وضع الإقتراب الطبي الفلسفي للأمراض النفسية. وأكد على العلامات السريرية التي يمكن متابعتها وقياسها وعلى الأعراض , ولهذا أدخل الأمراض العقلية إلى خيمة الطب البشري , وميّز بين الخرف والهوس والتخلف العقلي.

تأريخ المرض طويل ومتشعب ويمثل صورة التحدي البشري للمجهول ومحاولاته لفتح أبواب المعرفة والعلوم

الكلمة مكونة من (شيزو) : إنقسام ، و (فرينيا) : عقل. وبهذا تعني إنقسام أو تشظي العقل البشري

وتمكن أحد طلابه (جين إتاين إيسكويرل) أن يصف الهلاوس بدقة متناهية كما هي عليه اليوم , ووصف المونومانيا وهي حالة تشبه الكآبة وفصام الزور. وهكذا بدأت مسيرة تحديد الأعراض والعلامات , ومن ثم الإنتقال إلى التصنيف السريري للأمراض النفسية.

وتأريخ المرض طويل ومتشعب ويمثل صورة التحدي البشري للمجهول ومحاولاته لفتح أبواب المعرفة والعلوم , والتوصل إلى تداخلات نافعة للبشرية , تقلل من آلامها وتساهم في إسعادها.
والمثابرة في الكشف عن أسرار هذا المرض , تقدم المثل الواضح على عدم كلل البشرية وإصرارها وتحديها وتواصلها في إستكناه المجاهيل والمغاليق التي تتزايد من حولها , ففوق كل ذي علم عليم.

وكلمة شيزوفرينيا بلغت القرن من العمر منذ أن جاء بها الطبيب السويسري (يوجين بلولر) في عام 1911 أو 1908 , لكن مقالته تشير إلى التاريخ السابق , وأوضح الأعراض السلبية والإيجابية للمرض , ورأى أنه يحصل في بدايات العمر وتقدمه أيضا , وحاول أن يفصل ما بين الشخصية والتفكير والذاكرة والإدراك.
والكلمة مكونة من (شيزو) : إنقسام , و (فرينيا) : عقل. وبهذا تعني إنقسام أو تشظي العقل البشري , وهي مصطلح لوصف التفكير المتشظي للمصابين بالمرض , وقد تطور مفهوم المرض عبر الزمن.

وبما أننا نجهل الأسباب الحقيقية للمرض , فأن توصيفه وتصنيفه يستند على العلامات والأعراض السريرية وحصولها معا في الحالة الموصوفة.
وقد صنف أميل كربلن المرض ووصفه عام 1887 , وكذلك بلولر الذي سمّاه – (لا يُعرف مَن هو أول المستخدمين لتسمية "الفصام" في عالمنا العربي) – وأوضح كيفيات تطوره , فتم وضع الأنواع الخمسة المعروفة , والتي تضمنها التصنيف الأمريكي الثالث للأمراض النفسية . وهذا التصنيف لا يؤثر في التقدم والتطور ومصداقية التوضيف ويثير أسئلة.
وتشير الأدبيات النفسية إلى أن هناك مَن سبقهم في نشر حالات عن هذا المرض في الأعوام 1797, 1809, 1853 , 1891 . لكن أميل كربلن في عام 1893 جاء بفكرة تصنيف الأمراض العقلية , والتمييز ما بين **الديمنشيا بروكسس والهوس الإكتئابي** , واعتبر الأولى من أمراض الدماغ قطعا.

في العقود الأخيرة ، أخذ البحث والتركيز على الدماغ ومحاولة التفسير البايولوجي والعضوي للمرض

كان عندي مريض مصاب بالشيزوفرينيا، وقد تفانيت في علاجه، وتم له الحصول على الماجستير والدكتوراة

وبعد ذلك توالت الإكتشافات والتصنيفات والبحوث والدراسات وتقارير الحالات.
وسادت فكرة بلولر وتسميته الجذابة على مدى القرن العشرين ولا تزال , فكلمة شيزوفرينيا أصبحت عريقة في التراث المعرفي والثقافة البشرية جمعاء.

وفي العقود الأخيرة , أخذ البحث والتركيز على الدماغ ومحاولة التفسير البايولوجي والعضوي للمرض , بعد أن تطورت أجهزة الفحص الدماغي وعلوم الوراثة والجينات , مما يدعو للتفاؤل بأننا سنصل إلى السبب الحقيقي للمرض , فعالم الدماغ ستغوص العقول المعاصرة فيه وستكتشف مجاهيله حتما.

وقبل أعوام خلت كان عندي مريض مصاب بالشيزوفرينيا, وقد تفانيت في علاجه, وتم له الحصول على الماجستير والدكتوراة , وأصبح مدرسا في إحدى الجامعات ومضى في التدريس لأكثر من عامين , لكن الطلبة تواصلوا بإعطائه التقييم الضعيف حتى تم تنحيته من التدريس , وذلك لأنه لا يتفاعل معهم بإنفتاح , وإنما بحذر واحتراس , لكنه متمكن من مادته ومتفاعل مع المستجدات. وكان حريصا جدا على أخذ علاجه وهو (كلوزابين) 500 ملغم يوميا قبل النوم , وعلى فحص دمه بمواعيده.
وكلما يدور الحديث عن الشيزوفرينيا أذكر هذه القصة للزملاء , وأتساءل هل يمكن الشفاء من المرض؟
ولا زلت من المتفائلين بأننا سنصل ذات يوم إلى العلاج الشافي , وسنتمكن من تحرير الإنسان من إضطرابات دماغه الذي فقد آليات التواصل المنظم والفعّال مع محيطه.

لا زلت من المتفائلين بأننا سنصل ذات يوم إلى العلاج الشافي ، وسنتمكن من تحرير الإنسان من إضطرابات دماغه الذي فقد آليات التواصل المنظم والفعّال مع محيطه

2012\6\26

المقالة مستفادة من المقالة التالية:
Notes on History of schizophrenia, Theochris Chr. Kyiridis etal, German Psychiatry 2005;8:42-48

"مراسلات الشبكة" على الفايس بوك
http://www.facebook.com/Arabpsynet

**** ****

ARABPSYNET PRIZE 2012

جائزة البروفيسور مالك بدري لشبكة العلوم النفسية العربية 2012

www.arabpsynet.com/Prize201/2APNprize201.2pdf